المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص (69– 79).

القديس مار يعقوب البرادعي
المجاهد الأرثذوكسي الكبير 578+
"باني مجد السريان"

القديس مار يعقوب البرادعي معجزة السريان، ومن أشهر آباء الأرثذوكسيين تمسكاً بالعقيدة، ومن أكثرهم جهاداً في سبيل الإيمان القويم.

طفولته: كان في القسطنطينية الصغرى ويسميها السريان (تل موزلت) قسيس سرياني أسمه تيوفيل بن معنو أشتهر بورعه وتقواه. لم يرزق ولداً. فصام وصلى هو وامرأته. وبذلا الحسنات ثم نذرا نذراً لله وهو أن يقدما الأبن البكر الذي يرزقانه خادماً للرب. فقبل الرب دعاءهما ورزقهما ولداً ذكراً سمَّياه عند عماده يعقوب وربَّياه على سنن التقوى والفضيلة. ولما أتم الثالثة من عمره دفعاه إلى المدرسة فأقبل على مطالعة العلوم الروحية والأدبية باللغتين السريانية واليونانية.

رهبنته: وبما أنه كان منذوراً، أخذه أبواه إلى الدير، فسلماه إلى الرئيس وبعد أن قضى مدة التجربة، وثبت حقيقة زهده، ألبس الأسكيم الرهباني.

كان لباسه ثوباً غليظاً يقسم إلى شطرين يكتسي بأحدهما ويتشح بالآخر ولم يكن يغيره صيفاً وشتاءً حتى أضحى كله رقعاً أشبه شيء بالبردعة البالية. وهذا سبب تسميته بالبرادعي. ثم رسم كاهناً وأصبح رئيساً للدير.

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 70– 71.

جهاده في سبيل الإيمان الأرثذوكسي:

كان من أشهر المجاهدين في الأضطهاد البيزنطي أمام الكنيسة بعد أن كانت تيأس من أمل النجاة، فتفقدها الله بالقديس مار يعقوب البرادعي الذي عانى المشاق وأحتمل المطارد والضيقات في سبيل تثبيتها وتعزيتها والإيلاف بيت شعوبها العديدة، فنجح بعناية ربانية خارقة في صيانة أستقلالها الديني وثباتها. وإليك مراحل جهاده:

شخوصه إلى القسطنطينية: سنة 543 شخص إلى القسطنطينية مشياً على الأقدام ليشجع الآباء القديسين والمؤمنين وذلك أن الكنيسة في أيامه أضطهدها الخلقيدونيون بضراوة، فقد قتلوا قسماً من الأساقفة والأكليروس، وسجنوا ونفوا قسماً آخر إلى بلاد بعيدة وكان المؤمنون جميعاً يعيشون حياة قلق وأضطراب من جراء هذا الأضطهاد. ولما بلغ مار يعقوب العاصمة رحبت به الملكة تيودورة ترحيباً حاراً لأن شهرته كانت قد سبقته فكانت تتوق إلى رؤيته جداً.

رسامته مطراناً عاماً: كان عدد المؤمنين قد تقلّص من جراء الأضطهادات البيزنطية العنيفة، فلم يبقَ أساقفة أرثذوكسيون لرعاية المؤمنين، لذلك تدارس الآباء في القسطنطينية وضع الكنيسة في سورية وألتمسوا من الملكة تيودورة أن تأذن في رسامة أسقفين أو ثلاثة لسورية، فأذنت الملكة مار ثيودوسيوس الأسكندري الذي كان محتجزاً هناك بإجراء الرسامة. فأنتخب الآباء راهبين هما مار يعقوب البرادعي ومار تيودور، رسم مار يعقوب مطراناً على مدينة الرها وسائر سوريا وآسيا الصغرى، ورسم تيودور على بصرى وبلاد العرب وفلسطين حتى أورشليم وكان ذلك سنة 543 وقلّد البطريرك ثيودوسيوس مار يعقوب المتروبوليتية المسكونية العامة.

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 71– 73.

مار يعقوب يتفقد المؤمنين: قام مار يعقوب المطران العام بزيارات رعائية رسولية للمؤمنين في جميع أرجاء الأمبراطورية البيزنطية. كان يقطع في اليوم الواحد ما بين 30– 40 ميلاً مشياً على الأقدام وهو صائم، حتى شبّهه المؤرخون بعسائيل بن حروية خفيف الرجلين كأنه ظبي من ظباء الصحراء. فكان يقيم الصلوات والقداديس، وينظر في أمور المؤمنين معالجاً مشاكلهم الروحية، مشجعاً معزياً، معلماً فاستطاع بجهاده وهمته أن يضيف كل يوم إلى المؤمنين عدداً جديداً في شتى البلاد. وقد رسم بطريركين لأنطاكية، هما سرجيس التلي وإذ توفي رسم سنة 550 بولس الأسكندري خلفاً له باسم بولس الثاني. ورسم أيضاً سبعة وعشرين أسقفاً ومئة ألف من القسوس والشمامسة. وفي عام 559 تفقد أحوال كنيسة المشرق ومثل بين يدي كسرى الذي أكرم مثواه وهناك رسم مار أحودامة أسقفاً لأبرشية باعربايي مطراناً عاماً أي جاثليقاً على كنيسة المشرق. وهكذا أنعش الكنيسة السريانية الأرثوكسية التي أوشكت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة.

قال مؤرخهم الجرماني في هذا الصدد:

"لما كام ذوو الطبيعة الواحدة ييأسون، وكان بعض أساقفتهم قد ماتوا، والبعض الآخر سُجنوا ونُفوا، أستنهض حالتهم يعقوب البرادعي. فهذا الراهب الجلد الذي لا يكلُّ ولا يملُّ إذ رسمه الأساقفة المحجوزون في القسطنطينية مطراناً عاماً طاف كل الشرق ماشياً، ونظم عدداً وافراً من الأساقفة والقسوس. وأنعش في كل مكان ذوي الطبيعة الواحدة المذلين، وكان قادراً في فصاحته وأجتهاده المدهش حتى أنه حين مات سنة 578 ترك أمته نامية أحسن نمو في سورية وما بين النهرين وأرمينيا ومصر والنوبة والحبشة وفي بلدان أخرى. ولاشى كل المنازعات التي كانت بينهم".

وعلى أثر ذلك حسده الخلقيدونيون، وأقلق جهادة مضجعهم، فبحثوا عنه، وتعقبوه في كل البلاد علّهم يظفرون به. وكان الملك الخلقيدوني يوسطنيان قد عيّن جائزة قدرها 300 دينار لمن يأتي به إليه. لذلك نرى خصوم الكنيسة يجندون كل طاقتهم، ويستنفرون كل أجهزتهم للقبض عليه ولكن العناية الإلهية تعهدته وأعمت بصيرتهم فلم يقع تحت أيدي مضطهديه. وكان يتزيا تارة بزي شحاذ وطوراً بزي آخر.

إعداد د. شراق نبعة

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 73– 74.

أهتمام مار يعقوب بإعادة السلام إلى الكنيسة:

في عام 566 أهتم القيصر يوسطينوس وزوجته صوفيا السريانية الأرثذوكسية خالة الملكة تيودورة، بعقد مجمع في القسطنطينية لتقريب وجهة النظر بين الكنائس، لإعادة السلام، وتوحيد الصفوف، حضره مار يعقوب البرادعي وغيره من كبار أئمة الأرثذوكسية، وكثير من رؤساء الأديار وأعيان المؤمنين. ودار الحوار بين الأطراف المتنازعة طيلة سنة واحدة ولكن بدون جدوى. وبعد هذا بذل مار يعقوب قصارى جهده في حث القيصر وزوجته في تحقيق السلام المنشود كما سعى في الكتابة إلى مختلف الأديار لدعوة رؤسائها الرهبان لحضور مؤتمر يعقد في الرقة لهذا الغرض النبيل بأمر السلطات. فأجتمع إذ ذاك في الرقة جمهور كبير من كل فجٍّ عميق، رهبان وأكليروس وعلمانيون.

أفتتح البطريرك يوحنا سفير القيصر إلى بلاد فارس المؤتمر بكلمة وجّهها إلى المجتمعين حثّهم فيها على بذل الجهد من أجل إعادة السلام إلى الكنيسة، وتوحيد الصفوف، وركّز على عدم التزمت، والتمسك بدقة الأمور، وبضرورة التنازلات توصلاً إلى الغاية المنشودة، ثم تلي الكتاب الذي بعثه القيصر محتوياً على صورة الإيمان. ولما سمع الأساقفة والأكليروس مضمونه أجروا إليه بعض التعديلات من حذف وتغيير وأضافة، وذيلوه بتواقيعهم ليبعثوا به إلى البطريق يوحنا. وكان منات الرهبان قد جاءوا إلى الرقة للإطلاع على مجريات الأمور فطلبوا إلى الأساقفة أن يقرأ مضمون هذا الكتاب على مسامعهم ولما قرئ حدثت ضجة عظيمة خطف خلالها الورقة بوقاحة راهب وقح ومزّقها أمام الجمهور، الأمر الذي سبّب بلبلة وخصاماً.

إعداد د. شراق نبعة

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 74– 76.

وغضب البطريق يوحنا من هذا التصرف وقرّر مقاطعة المؤتمر، لكن الطيبين ومحبي السلام وفي مقدمتهم مار يعقوب سعوا لتلاشي ما قد حدث فتوصلوا إلى عمل معروض آخر كالذي مُزّق. غير أن الرهبان الذين كانوا سبباً في فشل ذاك أفشلوا هذا أيضاً وانتهت الأمور بدون جدوى.وتألم يوستينوس كثيراً لفشل مساعي البطريق في سبيل السلام. ثم كتب إلى سرجون قائد جيش سورية أن يسعى في شخوص مار يعقوب وثاودور وغيرهما إلى القسطنطينية، فبلّغ سرجون هذا الأمر إلى مار يعقوب وصحبه. ولكن الرهبان وجّهوا إلى مار يعقوب رسالة ينذرونه فيها من الدخول في مفاوضات مع خصوم الكنيسة تكون على حساب التنازل في العقيدة، أو عدم مراعاة الدقة في الأحداث، مما أضطر مار يعقوب عن العدول إلى الذهاب إلى القسطنطينية عملاً بإشارة الرهبان. وهكذا كان الرهبان سبباً في إعاقةالسلام والوحدة.

نشوء التسمية اليعقوبية: لما فشلت محاولات الإتحاد التي سعى إليها القيصر وحيث أن مار يعقوب عدل عن الذهاب إلى القسطنطينية بتأثير الرهبان كما مرّ، لذلك شخص إلى القسطنطينية البطريرك الأنطاكي بولس الثاني يرافقه أربعة أساقفة وهناك جرى حوار ما بين الأرثذوكسيين والخلقيدونيين تخللته ملابسات وعدم وضوح ولف ودوران ونتيجة لذلك تنازل البطريرك وصحبة مخدوعين فأشتركوا مع الخلقيدونيين مرتين. ولما أحسّ البطريرك بولس بما دبره الخلقيدونيون من خداع انسحب وتراجع عمّا قرّره. فغضب عليه القيصر وسجنه في دير وأهله. وأخيراً وخوفاً من الموت أستسلم بولس لمقررات المجمع الخلقيدوني، فخرج من السجن وأضحى مستشاراً للقيصر إذ كان رجلاً حكيماً ومحنكاً ومتمرساً ومتمكناً من الأدب والمعرفة والمنطق.

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 76– 77.

غير أن بولس ولئن حظي بهذه المكانة، إلا أن ضميره كان يبكّته، فلما سنحت الفرصة المؤاتية أفلت في أحد الليالي وألتجأ أخيراً إلى الملك الغساني المنذر بن الحارث أبن جبلة الأرثذوكسي. فلما علم القيصر هرب بولس، أمر بإغلاق جميع الموانئ والحدود وتفتيش السفن والأديار وحتى القبور وكتب عنه إلى كل مكان.

تسلم تسلم طيباريوس زمام الحكم في عام 574 فأوقف عن ملاحقة الأرثذوكسيين وسمح لمار يعقوب البرادعي بالخروج من منفاه والعودة إلى القسطنطينية.

أما بولس الثاني البطريرك حال وصوله إلى المنذر بن جبلة قدَّم توبة لمار يعقوب البرادعي ولمجمعه الشرقي في معروضين، وبعد تضرع ثلاث سنين قبله مار يعقوب ومجمعه بإلتماس المنذر، فلما علم الأسكندريون بقبول بولس قرروا الأنشقاق الأمر الذي حزَّ في نفس مار يعقوب وأهل سورية بل أضطر مار يعقوب إلى عزل بولس إرضاءً للإسكندريين فأنقسمت الكنيسة بأساقفتها وأديارها ومؤمنيها.

تحزَّب قسم لبولس والقسم الأكبر لمار يعقوب ومن هنا أتت تسمية "اليعقوبية" وهي وليدة مناسبة معيّنة ولفترة معيّنة، كما ليست هي وليدة جدل تعليمي بل أطلقت في أول الأمر على حزب مار يعقوب، وحيث أنها حزبية شخصية لا غير، وبما أن ذلك الحزب الذي ظهر عام 570 قد أنتهى أمره في عام 580 تكون هي الأخرى أيضاً التسمية أنتهت وزالت وطمس أمرها وخبرها.

غير أن الملكيين [1] خرجوا بها بعدئذٍ [2] عن أصل وضعها، وخلعوا عليها من معدن العداء العقائدي الذي استحكم بينهم وبيننا نحن السريان معنىً تعليمياً وذلك بسائق الغيظ والتشفي فتلقّفها النساطرة فالموارنة فاللاتين حتى أعتمدها المستشرقون.

1 الروم الخلقيدونيون.

2 ذكرت لأول مرة في مجمعهم السابع.

المصدر: "السريان إيمان وحضارة، ج2، بقلم المطران إسحق ساكا، 1983، ص 77– 79.

ولا يخفى أن التسميات والنعوت الناشئة عن أسباب عدائية لا تكون مداراً للإصطلاح الرسمي لكنيسة وشعب ذي كيان ثابت يمتد أسمه ونعته الصحيح ألى مئات السنين قبل ذلك الفراق.

وتأكيداً لذلك نورد ما قاله السيد روبنس دوفال الفرنسي الكاثوليكي: "أن أسم اليعقوبية هو من وضع يوناني أطلقه خصوم يعقوب على حزبه أما هم فيسمون أنفسهم بأسم: ألأرثذوكس". وقال أيضاً الأب يوسف لبون الكاثوليكي الدكتور في اللاهوت: "أن هذه التسمية "اليعقوبية" أطلقت على حزب يعقوب في أثناء المشاكل التي أثيرت على البطريرك بولس ألأنطاكي الثاني 550– 571 فليس أصلها من جدل تعليمي وإنما هي نتيجة الخلاف الذي شجر بسبب مخالفة يعقوب البرادعي لبطرس الأسكندري مقاومةً لبولس ألأنطاكي وثاودور ألأسكندري".

وفاة مار يعقوب البرادعي: في عام 578 شخص مار يعقوب ومعه ثمانية أساقفة إلى ألأسكندرية، حباً بالسلام وتطلعاً إلى تسوية الخلاف المار ذكره، ولكن بعد وصوله إلى مصر بمدة وجيزة جداً توفي في دير قسيان فأسلم روحه الطاهرة في 30 تموز 578+ فجنّزه الرهبان ووضعوه في صندوق وأحتفوا بدفنه في ديرهم بإكرامٍ جزيل، وعبثاً حاول البطريرك ألأسكندري دوميان من نقل رفاته إلى ألأسكندرية. وفي عام 622 وعلى عهد البطريرك مار أثناسيوس ألأول المعروف بالجمَّال توجه بعض الرهبان ألى دير قسيان في مصر وتمكنوا بوسيلة ما أخذ رفات القديس مار يعقوب ونقلها إلى فلسطين وألى مدينة تلاّ بالذات حيث هرع ألأسقف زكا وألأكليروس وأهل المدينة إلى لقاء الجثمان الطاهر بشموع وبخور وأناشيد ثم دفنوه في ديره "دير فسيلتا". في الهيكل الذي كان القديس نفسه قد شيَّده.